مصطفى صادق الرافعي

للأستاذ أحمد حسن الزيات

كان الرافعيُّ ـ رحمه الله ـ حُجَّةً في علوم اللسان ، ثقةً في فُنون الأدب ، عليماً بأسرار اللغة ، بصيراً بمواقعِ اللفظ ، خبيراً بمواضع النَّقد ، مُحِيطاً بمذاهب الكلام . وقلَّما تتهيأ هذه الصِّفاتُ لغير المطبوعين من الأدباء الذين تعاطوا مهنةَ التعليم ، فاستنزفوا أيامَهُمْ في دَرْس القواعد ، وحِفْظ الشواهد ، وفِقْه النُّصوص بحكم الصَّنعة . فكنتُ إذا ذاكرتُه في شيءٍ من دقائق النحو ، وخواصِّ التركيب ، وفُروق اللغات ؛ وجدتُه على ظَهْر لسانه ، كأنما انصرف من مُراجعته لوقته .

ودراسةُ الكاتب أو الشاعر للغته وفنِّه ؛ هي في رأيه ، ورأي الحقِّ شرطٌ لوجوده ؛ فلا يكونُ النبوغُ والأستاذية بدونه ، ولا تَجْزي الطبعيةُ ولا المحاكاةُ عنه .

وكان ـ شَهِدَ الله ـ فما بينه وبين أخصَّائه يرفعُ أدبَ العقَّاد لوضوح هذه المزية في كُلِّ ضرب من ضروبه .

ولقد بَلَغَ عِلْمُ الرافعي بالعربية وآدابها حَدَّ الاجتهاد والرأي ، فكان يقفُ في التعليل والاستنباط من ثِقاتها ورُواتها موقفَ النِّدِّ ؛ وقد يتعظَّم أحياناً فيقفُ منهم موقفَ الأستاذ . فهو في أدبه مُطْلَقُ الحرية ، مستقلُّ الإرادة في حُدود المأثور من بيان العرب ؛ ولكنه في فلسفته مُقَيَّد النظر ، مسيَّر الفكر ؛ لنزوله في الرأي على حُكْم الدِّين .

على أنك لا تعدو الصَّوابَ إذا قلت : إنَّ حريةَ أدبه أشبهُ بعبودية فكره ؛ لأنَّ مصدرهما وموردهما واحدٌ هو القرآن . والقرآنُ من جهة الأدب غايةُ الجمال ، ومن جهة الفضيلة غايةُ الخير ، ومن جهة الفلسفة غايةُ الحق ؛ لذلك كان قولُه في القديم والجديد قول العربي الَّذي يؤمنُ أنَّ لغته التي تكلَّم بها اللهُ ناميةٌ بذاتها ؛ لأنها حَيَّة ، ومُتطوِّرة بطبعها ؛ لأنها قوية ؛ وكان قولُه في المرأة والرجل قولَ المسلم ؛ الذي

يعتقدُ أنَّ دِيْنَ الله حَقٌّ لا يُبطِله قدم ، وأنَّ شَرْعَهُ قانونٌ لا يُعطِّله شهوة . وما دام العربُ أحياء فأدبُهم مُتَجَدِّدٌ ، وما دام القرآنُ خالداً فدينه قائم .

على هذين القُطْبين كانت تدورُ فلسفةُ الرافعي الأدبية والاجتماعية . ولعلِّي تساهلتُ إذ قلت : فلسفةُ الرافعي ، فليس للرافعيِّ فلسفةٌ ؛ إنما هي فلسفةُ القرآن ، وأدبه قام منها مقام ابن رُشْد من أرسطو : يُقَرِّر ، ويُحَرِّر ، ويُدافع من غير أن يكونَ لمنطقه حكمٌ ، ولا لرأيه اعتراضٌ .

* * *

كان الرافعيُّ في بعض حالاته يفتنُّ في الصُّورة التي يرسمها افتنان المصوِّر الخيالي ، يضيفُ إليها من المشاهد ما لاتقرُّه الحقيقة ، ويضعُ فيها من الألوان ما لا تعرفه الطَّبيعة . وقصده القاصدُ من ذلك أن يريكَ قُدرةَ ذَوْقِه على الملاءمة ، وقُوَّة ذهنه على التَّوليد ، ويُعْطيَك للشَّيء أو للشخص صُورة إذا لم تكن كانتْ ، فهي التي ينبغي أن تكون . فهو إذا كَتَب في موضوعٍ ما سَمَحَ لعاطفته أن تجري ، ولهواه أن يدفع ، ولفنِّه أن يزخرف ، ثم يستخدمُ براعته في التَّدليل على صحَّة العاطفة ، ونزاهة الهوى ، وصِدْق الأداء ، فيكونُ من امتزاج الخيال بالواقع ، واشْتباه الغُلُوِّ بالقصد ، والتباس البَهْرَج بالصَّحيح ؛ صورة غامضة الدَّلالة ، خافتة الروح ، ولكنها بديعةُ الإطار ، رائعةُ اللون ، مُنَمْنَمةُ الخطوط ؛ وذلك أكثر ما تراهُ في « حديث القمر » و« السحاب الأحمر » و« المساكين » و« أوراق الورد » .

أما إذا اتَّصل فنُّه بشعوره ، وافتنانه بطبعه ، ورأيه باعتقاده ، فإنك ترى الإشراقَ في اللفظ ، والجلال في المعنى ، والسُّمو في الرُّوح ، والإعجاز في الصَّنْعة .

وهنالك تجدُ الرافعيَّ في جلوةِ الإلهام التي تشدهه هو نفسه ، فيقول لي ، ولمن يأنسُ إليه : إنَّ حالاً تُشبه حالات الوحي تقومُ به في بعض ساعات الليل ، حين يكتبُ في إعجاز القرآن ، أو في الدِّفاع عن أدبه ، فلا يكونُ فيما يُنْشِئ إلا وسيطاً ينقلُ عن قوة من وراء الغيب . وأكثر ما وقع له ذلك في كتابيه « تحت راية القرآن » و« وحي القلم » .

* * *